أهمية العصر الجاهلي كمرحلة جينية لنشأة الفكر العربي المعاصر

☜ إعـــداد

د/ علوي عمر مبلغ

استاذ مشارك قسم الفلسفة والعلوم الاجتماعية

كلية الآداب- جامعة عدن

فكرة البحث وإطاره العام:

تأتي عملية التفكير من قبل الباحث في اختيار العصر الجاهلي كموضوعٍ للبحث من واقع عاملين هامين:

يتمثل العامل الأول من كون الباحث قد أنيطت به مهمة تدريس مادة الفكر العربي الحديث والمعاصر في جامعة عدن- كلية الآداب-قسم الفلسفة والعلوم الاجتماعية، وتم وضع مفردات دراسية لهذه المادة، وذلك في مطلع التسعينات أي منذ قرابة عقدين من الزمن، بمعنى آخر إن هذه المادة حديثة الولادة من حيث تدريسها في الجامعة على الرغم من عمرها الزمني المديد في معظم الجامعات العربية، الأمر الذي يخلق المزيد من التحديات لدراسة هذا الفكر بوصفه مركز ثقل ليس على صعيد الواقع التربوي-الأكاديمي الجامعي، بل على صعيد كل المهتمين والمنشغلين بها حسب هذا الفكر من مختلف زواياها على الصعيد الإقليمي العربي والعالمي.

أما العامل الآخر؛ فيتموضع في كون إن لدى الفكر العربي من المراحل الخاصة بظهوره، مايسمح لنا بمحاولة المساهمة المتواضعة في جعل موضوع العصر الجاهلي ضمن هذه المراحل، وأساسًا لتأسيس مرحلة الفكر العربي المعاصر الأولى والبدائية، ويغدو الحديث حول اعتبار العصر الجاهلي زمنيًا كمرحلة أولى للفكر العربي أكثر صعوبة وتعقيدًا، لاسيما في ظل ندرة مثل هذه المحاولات والخاصة بتقييمات مراحل الفكر العربي على الواقع الزمني، ولعل من المفيد ذلك إن مثل هذا الاتجاه يأتي في خضم منظومة الاجتهاد الذاتي للباحث، وإسهامًا منه في الدعوة إلى مناقشة هذه المسألة لذوي الشأن والاهتمام بحقول ومسارات الفكر العربي في واقعنا الراهن، وبالتالي فإن إصرار الباحث على إن يكون بحثه موسومًا بالعصر الجاهلي طريقًا لنشؤ الفكر العربي المعاصر والتأكيد على ذلك هو ما يُفسر مشروعية تبرير الباحث لفكرة البحث.

أهمية موضوع البحث:

تكمن هذه الأهمية في فرادة وتميّز موضوع الفكر العربي المعاصر؛ حيث أضحى موضوع الكتابة عن موضوعات العصر الجاهلي لدى الكثير من مفكري العرب المعاصرين، والمهتمين بتدريس قضايا الفكر نادرًا إن لم يكن معدومًا بسبب غاية في البساطة، هو الاعتقاد السائد ، إن العصر الجاهلي ومايحيط به من إشكاليات تدخل في سياق منظومة اللغة العربية عمومًا وآدابها على وجه الخصوص إلى درجة إن التطرق إلى دراسة هذا العصر محظورًا على غير اللغويين ومن المعيب إن يصبح العصر الجاهلي موضوعًا للدراسة الأحادية الجانب التي لاترى فيه إلاّ عصرًا للشعر والخطابة والنثر...الخ، دون الغوص في الجوانب الأخرى، وهي مهمة تستدعي هذا البحث ضرورة تباينها وإيضاحها، ومن هنا تأتي أهمية هذا الموضوع.

إشكاليات البحث وأهدافه:

يهدف هذا البحث وبكل جدّية إلى ضرورة البحث عن آلية بطلان ما يتعلق بتصوير العصر الجاهلي، باعتباره عصرًا للتخلف والرجعة والاسوداد، وبالتالي وضع الحياة البدوية فيه كمصدر للبدائية والعشوائية والفوضوية، الأمر الذي يجعل من مهمة الباحث أكثر وعورة في محاولته للتدليل على تبيان الصورة المعاكسة التي اتسمت على وجه هذا العصر، ومن منظور علمي غير عاطفي، وسوف يتجلى ذلك واضحًا من خلال سرد العديد من الوقائع والإشكاليات التي يُعّج بها البحث عبر صفحاته اللاحقة.

فرضيات البحث:

- العصر الجاهلي ومفهومه في المجتمع العربي المعاصر؛ لازال محصورًا ومحددًا، ومصطلح العصر الجاهلي هو من أكثر المصطلحات شيوعًا في الخطاب العربي المعاصر من ناحية، والأكثر غموضًا وإبهامًا من ناحية أخرى.
- الفهم المغلوط للعصر الجاهلي، وبتقديري هناك ثلاثة مستويات للعصر الجاهلي: العصر الجاهلي كمعنى، والعصر الجاهلي كشعار، والعصر الجاهلي كمفهوم فلسفي.

- الحديث عن تحقيب الفكر العربي، يشمل هو الآخر ثلاثة مراحل ابتداءً بالعصر الجاهلي كمرحلة أولى، ومرورًا بظهور الإسلام كمرحلة ثانية، وانتهاءً بما يتفق على تسميته بالنهضة العربية الحديثة في نهاية القرن (١٨) ومطلع القرن (١٩) مرحلة ثالثة.
- الحياة البدوية في العصر الجاهلي بمثابة الخلية الحيّة النابضة بالحياة في جسم هذا العصر، وما جرى من إبراز هذه الحياة وتصويرها بأنها الحياة العفوية الساذجة، أمر قد لانتفق معه ولايكاد يكون دقيقًا وصائبًا، طالما عرفت هذه الحياة البدوية أنماطًا من الرّقي والتطور، والبرهنة على مصداقية ذلك يأتي في طي صفحات هذا البحث.

المنهج العلمي المستخدم وأدواته البحثية:

يتبين من خلال طرق واختيار العصر الجاهلي موضوعًا للدراسة من واقع ارتباطه بالفكر العربي المعاصر كمرحلة أولى لظهوره هو في حد ذاته تحديًا منهجيًا، واستحداثًا للمنهج الاستدلالي الذي قلما يجري تطبيقه، علاوة على محاولة الباحث استخدام المنهج التحليلي من ناحية، والتاريخي من ناحية أخرى، وهناك لابد من لفت الانتباه إلى ضرورة محاولة الباحث في التحرّر والانعتاق من الوقوع في قفص الاتهام من وضع المنهج الوصفي، وكذا المقارن أن يتصدر أو يتسيّد بقايا أنواع المناهج الأخرى، وهذا لايعفي الباحث من استخدامها ولكن ليس على حساب المناهج السالفة الذكر الأخرى.

تقسيم موضوعات البحث "الفهرسة":

أهمية العصر الجاهلي كمرحلة جنينية لنشأة الفكر العربي المعاصر.

-المقدمة.

- تعريف العصر الجاهلي.
- أهمية الجزيرة العربية في نشؤ العصر الجاهلي.
- طابع الحياة العقلية للعصر الجاهلي.
- بعض إشكاليات العصر الجاهلي.
- الخلاصة والاستنتاجات.
- الخاتمة.
- قائمة المصادر والمراجع.

بسم الله الرحمن الرحيم

أهمية العصر الجاهلي كمرحلة جنينية لنشأة وظهور الفكر العربي المعاصر:

المقدمة:

إن الحديث عن " الفكر العربي المعاصر" كنتاج لنموه وتطوره عبر مراحل مختلفة ابتداءً من العصر الجاهلي، أن الحديث عن ذلك فلسفيًا يتطلب وقفة متأنية عند حدوده ومفاهيمه والمنهجيات التي بثت فيه أو تحدثت عنه "مغتربة" كانت تلك المفاهيم أم " عقلانية نقدية " الكشف عن العمق الحضاري لهذا المصطلح إلى جانب سيرة ذلك الفكر في الحقبة الإسلامية "المزدهرة " أو عصور الانقطاع الحضاري بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، وسقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م، وما تبعها من سيطرة أجنبية؛ كأنها جاءت ردًا على " الحامل الثقافي/ الحضاري العربي الإسلامي"، الذي حفظ الفكر السابق عليه وطوره ونقده، وصحح وأضاف إليه في ميادين العلوم، الحكمة، الأدب، الفنون والشريعة، وجميع ما يتعلق بعلم العمران بلغة أبن خلدون.

وإذا كان (الصوت الحضاري العربي) قد خفت في الفترة الممتدة من ١٢٥٨-١٩١٨م، بسبب عوامل الضعف والسيطرة وغياب الدولة الوطنية القومية؛ فإن المتغيرات العالمية التي حدثت بعد قيام الثورة الفرنسية ١٧٨٩م، والحرب الغربية والصراعات الفكرية التي انعكست على المجتمع العربي لم تكن تخلو من آثار ايجابية أيقظت في المكنون الفكري العربي روح البحث عن الذات بين ذلك الخضم من المتغيرات العالمية على صعيدي الفكر والحياة؛ فهو من جانب يحرص على امتلاك هويته القومية التي تعرضت للإيذاء لاسيما " اللغة" وهي أساس العصر الجاهلي.. وبين استحضار دوره الحضاري الإنساني في الإسهام مع الآخرين في دفع العملية الحضارية إلى الأمام، لكنه لايتمكن من ممارسة هذا الدور، لأنه بقي منحطًا، متخلفًا، ضعيفًا، من هنا جاءت محنة الفكر العربي الحديث الذي مع متغيرات الحياة الأوروبية بعد الثورة الفرنسية.. التي وصلت بتأثيرها حد غزو نابليون بونابرت لمصر في سنة ١٧٨٩م، وما رافق ذلك من أفكار تتحدث عن الإخاء، الحرية، المساواة، الحكم

الـذاتي. حقـوق الإنـسان، والدولـة القوميـة الديمقراطيـة والتقـدم...الـخ.أقـول أن محنـة الفكـر العربـي بـدأت مـع الـصدمة الغربيـة المزدوجـة؛ فـالغرب الـذي تحـدث عـن حركـة التنـوير، والأفكـار العلمانيـة وعمـل علـى تحريـر الإنـسان مـن عبوديـة القـوى الميتافيزيقيـة لكـي يأخـذ مـداه الطبيعـة والحيـاة هـو نفـسه الـذي حـل بأسـاطيله وجيوشـه وأسـلحته الفتاكـة، وحـرم إنـسان هـذا الربـوع مـن امتلاك فرصته في إقامة دولته وتجربته الإنسانية لأسباب كثيرة.

فكيـف كـان الموقـف داخـل (الثقـافي) للفكـر العربـي، ذلـك هـو الـسؤال الـذي رتـب علينـا وعلـى مـن أراد الإجابـة عليـه، أن يتعـرض منهجيـة هـذا الفكـر، وسـبل معالجتـه لقـضاياه ومـشاكله؟ ولمـاذا كـان منفـصلا ومغتربًـا، مقلـدًا فـي أحيـان كثيـرة، أكثـر منـه مبـدعًا منتجًـا لأجوبتـه الفلسفية وطقوسه الفكرية، وحلوله الايجابية.

إن محنـة الفكـر العربـي كمـا يبـدو لأول وهلـة تكمـن فـي ضـعفه (الـذاتي) بـسبب عـدم تـوفر فرصـة لـه يـتمكن مـن خلالهـا إثبـات قدراتـه وحـدود رؤيـاه، إلـى جانـب معاناتـه مـن ضـغوط واشـراقات الماضـي (الـذهبي) العربـي الإسـلامي ومـا قبلـه ؟ والفكـر الفلـسفي العربـي ومعطياتـه ! كـل ذلـك وزع الفكـر العربـي بـين مواقـف ثلاثـة كبـرى لاتخلـو مـن (اغتـراب) بـالمعنى الفلـسفي، والجانـب (الماضـوي) منـه عبـر اغتـراب زمـاني أو (الحـداثوي) منـه عبـر عـن (اغتـراب)(مكـاني) ومـابين الاغتـراب تذبـذب الجـواب العربـي.. مـن خـلال محـاولات سـماها الـبعض بالعقلانيـة النقديـة ومحـاولات الحقبـة الحديثـة التـي انتهـت مـع نهايـة الحـرب العالميـة الأولـى، والحقبـة المعاصـرة (اليـوم) والتـي لاتخلـو مـن ومـضات مـشعة، شـرط خروجهـا مـن تجزئيتهـا إلـى حيـث التـراكم التكـاملي الـذي يعتـرف بالـدوافع العقلانيـة للإجابـة العربيـة وبـصورها النقديـة الفاعلـة للاسـتماع لـلآراء كافـة علـى أسـاس نـسبية الحقـائق واحتـرام الـرأي الآخـر؛ فلـيس هنـاك تنوعًـا أكثـر مـن ذلـك الـذي يتولـد داخـل العلـوم الإنـسانية؛ فكيـف والفكـر العربـي المعاصـر نفتـش لـه عـن (هويـة) بين حشد من الإمكانيات التي سنقف عليها في هذا البحث عبر منظومة العصر الجاهلي.

١-تعريف العصر الجاهلي:

أ.المكان:

ونعني به منطقة شبه الجزيرة العربية، الواقعة بين قارتي أسيا وأفريقيا، وهي منطقة تحيط بها البحار، باستثناء قسمها الشمالي الذي يتصل بالبر الأسيوي، الذي يحدها خليج العقبة في أعلى البحر الأحمر إلى العراق؛ ويحدها جنوبًا المحيط الهندي، وغربًا البحر الأحمر وشرقًا الخليج العربي وعمان.

١-الحجاز: ويقع في شمالها الغربي، وأهم مدنه: مكة، ويثرب (المدينة)، والطائف.

٢-اليمن: ويقع في الجنوب الغربي من الجزيرة.

٣-عُمان: وهو القطر الذي يواجه الهند، في الزاوية الشرقية من الجزيرة.

٤-البحرين: وموقعه في شمال عمان على الخليج العربي.

٥-اليمامة: وهي إقليم سهلي خصب في الجنوب الشرق من نجد.

٦- نجد: وتقع في وسط الجزرة العربية.

فهذه أشهر أقطار الجزيرة التي نشأ فيها الأدب العربي، والتي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بموضوعنا هذا (باستثناء اليمن).

ب.الزمان:

ويتحدد في الفترة السابقة لظهور الدعوة الإسلامية بحوالي قرن ونصف " وهي الحقبة التي تكاملت للغة العربية منذ أوائل خصائصها، والتي جاءنا عنها الشعر الجاهلي"[1]، إضافة إلى أنها الحقبة التي حملت الكثير من الأخبار والمعلومات؛ إذ أن الفترة التي سبقتها اكتنفها الغموض، وقلة الأخبار عن تاريخ العرب الشماليين الذين هم موضوع قيد البحث والدراسة.

ج.الجاهلية:

كلمة جاهلية يُقصد بها السفه والنزق والغضب، وفي هذا المعنى قول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جَهْلِ الجاهلينا.

وبذلك فإن (الجاهلية) مشتقة من (الجهل) الذي هو ضد (الحِلم)، ولايقصد بالجهل الذي هو نقيض (العلم) وأصبحت الكلمة صفة للعرب " الذين عاشوا قبل الإسلام في بوادي شبه جزيرة العرب وفي مدنها الباقية "[٢].

٢-أهمية الجزيرة العربية:

معظم سكان الجزيرة كانوا قبائل أكثرها على البداوة، ونتيجة لطبيعة المكان؛ فهم " قبائل رحل، لايقرون في مكان، ولايتصلون بالأرض التي يسكنونها إتصالا وثيقا كما يفعل الزرّاع "[٣]، أما القلة الباقية؛ فقد استقرت في بيئات ضيقة، عرفت فيها بعض أسباب الحضارة بفعل نشاطها الاقتصادي كالتجارة في (مكة)، أو الزراعة في (المدينة).

وعلى الرغم من الطبيعة الصحراوية القاسية، وما فرضه المكان من عزلة جغرافية؛ إلا أن ذلك لم يمنع حدوث اتصال بالأمم المجاورة، وتجلى هذا الاتصال عبر جوانب عدة أهمها:

أ.التجارة:

حيث كان في جزيرة العرب طريقان عظيمان للتجارة بين الشام والمحيط الهندي، وقد تمتعت (مكة) منذ القرن السادس للميلاد بمكانة تجارية بارزة لموقعها الحيوي في منتصف طريق التجارة بين اليمن وبطرة، كما كان لأهل مكة (قريش) رحلتان: إلى اليمن شتاءً، وإلى الشام صيفًا، ودون شك أن تلك الطرق التجارية وما تعنيه من اتصال، قد يسّرت لعرب الجزيرة معرفة شيءًا من مظاهر التمدن، والإطلاع على حضارات الأمم المجاورة لها، بل أن مكة لموقعها ونشاطها التجاري ابرمت اتفاقيات تجارية مع كل من الفرس والروم، وأصبحت مقامًا لجاليات "أجنبية يهودية ونصرانية وسورية ومصرية وحبشية ورومية وفارسية، وكان أغلبهم يعمل بالتجارة"[٤].

ب.المدنيات العربية على تخوم الجزيرة:

إذا ما أمعنا النظر في خريطة أسيا لرأينا أن الجزيرة العربية؛ كانت تقع بين أعظم قوتين-آنذاك- الفرس من الشرق، والروم من الغرب، لذا كان من الطبيعي حدوث نوع من الاتصال، لايمكن إهماله، أو إنكاره؛ فلو أننا قبلنا الرأي القائل بعزلة عرب الجزيرة،

وانقطاعهم عن الأمم المجاورة لهم، فإن ذلك لايعني في المقابل انقطاع الآخرين عن الجزيرة وسكانها، وبخاصة إذا ما كان للآخرين مصلحة من هذا الاتصال مثلما حاول كل من الفرس والروم في سعيهما لاستمالة القبائل العربية بغية تأمين حدود مملكاتهم؛ وتأمين طرقهم التجارية من غارات القبائل البدوية، وما ظهور بعض المدنيات العربية على تخوم الجزية كإمارة " الحيرة على تخوم الفرس، وإمارة الغساسنة على تخوم الروم "[٥]، إلا صورة من صور اتصال عرب الجزيرة بمن حولهم، وقد أكد القرآن الكريم تلك الحقيقة التاريخية وبأن " العرب كانوا على اتصال بمن حولهم من الأمم، بل كانوا على اتصال قوى قسّمهم أحزابًا وفرقهم شيعًا"[٦]؛ فمنهم من قف إلى جانب الروم كالغساسنة، وآخرون أزروا الفرس كالمناذرة.

ج.الهجرة إلى الجزيرة:

مثلت الجزيرة مكانًا آمنا لليهود والنصارى من بعدهم، لذا توافدوا عليها، حينما أشتد في اضطهادهم الروم، فاستوطنوها منذ القرون الأولى للميلاد وبخاصة في "تيماء وفي فدْك وفي خيبر وفي وادي القرى وفي يثرب "[٧]، حيث شكلت تلك المناطق مكانًا آمنًا لتجمعات اليهود. أما النصرانية؛ فقد اتخذت من (نجران) مقرًا رئيسًا لها، إضافة إلى انتشارها في (طيء) و(دومة الجندل).

إن اتصال عرب الجزيرة بالآخرين أمر لاشك فيه، ولعل في هجرة المسلمين الأوائل هربًا من قريش، وركوبهم البحر إلى الحبشة، دليل آخر يؤكد حقيقة ذلك الاتصال.

أما عن أثر ذلك الاتصال؛ فقد ظهر شيء يسير منه في نطاق بيئات بعينها، سمح لها نشاطها الاقتصادي بآخذ بعض المظاهر المدنية، ولم يجاوز هذا التأثير إلى أكثر أو أبعد من ذلك، والسبب في هذا إنما يعود إلى طبيعة الإنسان الجاهلي وطور البداوة الذي أساسه المحافظة وإلى عصبية الجاهلي التي تملؤه بشعور من الاعتزاز ومن التعالي؛ فإذا به يرى نفسه، أرفع الناس قدرًا، وأشرفهم نسبًا، بل أنه في عصبيته بما يذهب إلى أبعد من ذلك، فيعتقد أن الله لم يخلق أذكى منه، ولا أشجع، ولا أشعر منه، مثلما اعتقد (بنو تميم)، وهكذا كان حال العربي الجاهلي " يشعر في أعماق نفسه بأنه من دم ممتاز، لم يؤمن بعظمة الفرس

والروم، مع ماله ولهم من جدب وخصب، وفقر وغنى، وبداوة وحضارة "[٨]، ذي قار*(٦١٠م)؛ إلا دليل على تلك الأعصبية وعلى اعتزازهم بها، وهذا الأمر حال دون تأثرهم بتلك الأمم وحضارتها، إلا في أضيق الحدود وأبسط المظاهر " كأن يأخذوا عن الفرس والروم بعض فنون الحرب، أو يعرفوا بعض أخبارهم وأساطيرهم "[٩].

٣-طابع الحياة العقلية في العصر الجاهلي:

يرى البعض أن الحياة البدوية حياة بدائية، بينما هناك من يرى " أنها ليست بدائية، وإنما هي طراز من الحياة سلكته جماعات بشرية "[١٠]، وأن الفرق الوحيد بين البداوة والحضارة هو إكتفاء " البدوي بالضرورة من أسباب العيش بينما يتوسع أهل الحضر في أسباب الترف من المطاعم والملابس والمساكن "[١١]، وعليه فإن هذا الفرق لاينفي حضارة البدوي، وإنما يجعلها " حضارة موقوفة Arrested Civilization لأنها تتكرر على منوال واحد ولاسبيل إلى تغيرها، ولكنها حضارة قائمة بذاتها لها خصائصها ونظمها البعيدة عن البدائية "[١٢]، فلو كانت حياة البدوي بدائية لما استطاع التغلب على طبيعة الصحراء القاسية، متحديًا شحة أسباب الحياة فيها، يثبت وجوده من خلال تأسيسه لقواعد و " قوانين علمية، لاتقل شأنًا في وضعها وتنظيمها، عن قوانين الحياة الصناعية في حواضر المدن "[١٣]، وبتلك القوانين وتنظيمها والتزامها، أفصح البدوي عن ملكات عقلية قادرة على استنباط قوانين بقائه، وإلمامه بشروط استمرار حياته، من خلال ما أبداه من قراءة واعية لبيئته، تلك البيئة التي أقل ما توصف بأنها نقيض الحياة والاستقرار، ولذلك لم يصح من معارف العرب "إلا ما كان له أصل في تفكيرهم الواقعي الناتج من طبيعتهم كجنس نشأ في صحراء كلها واقع قاس"[١٤]؛ فالبيئة لها أثر فاعل وحاسم في تحديد الشكل الحضاري لشعب ما " لأن الإنسان إنما يأخذ مادة حضارته مما حوله"[١٥]، ولذلك سعى العقل البدوي جاهدًا إلى فهم طبيعة بيئته، والتكيف معها بإدراكه لشروطها، بناءً على قوانين وقواعد تأسست عبر تاريخ طويل من التقاليد والأعراف والتجربة، القائمة على مدركات حسية، تشير إلى نمط من التفكير العقلي، ساد طور من أطوار الحضارة الإنسانية.

وإذا ما كان (العقل) في اللغة يدل على قدرة العقل على عقل الأشياء أي القبض والسيطرة عليها، بإدراك حقيقتها من خلال ربطها بعضها ببعض، وملاحظة الأشياء وتحليلها واختزان كل ما نتج عن هذه الملاحظات؛ فإن واقع الأمر بالنسبة لعرب الجاهلية يدلنا على أن تلك العملية العقلية لم تكن من التمام والكمال بحيث تنتج لنا علومًا مؤسسة على قواعد ومنهج. ومرد ذلك إنما يعود إلى الطور الذي كان فيه عرب الجاهلية، وما حدده لهم من حياة بسيطة تقوم على اليسير من المتطلبات بل وأقلها، لذلك لم يكن هناك ما يستدعي العقل إلى التأمل والتعمق، أو إلى التحليل والتوسع في العلوم والمعارف، أو إلى النظر إلى الحقائق بنظرة تعمق وشمول، أو تعليل الحوادث تعليلا صحيحًا؛ فالعقل الجاهلي لم يكن مؤهلا-مثلا- لإدارك الارتباط بين العلة والمعلول، ولعل هذا القصور العقلي يتضح بشكل جلي في " ما ملئت به كتب الأدب من خرافات وأساطير كانت العرب تعتقدهم في جاهليتها "[١٦]؛ فعلي الرغم من اتصاف العقل العربي بالذكاء وسرعة البديهة، وبامتلاكه لذاكرة قوية، ساعدت العرب في حفظ أنسابهم، وأخبار أيامهم المشهورة؛ إلا أن العقل العربي ظل بعيدًا عن التفكير الموضوعي القائم على تحليل الشيء إلى عناصره الأساسية، وذلك لوقوعه في أسر التفكير المعياري الذي يميل وبشدة إلى اختصار الأشياء في قيمتها، ومحاولة إيجاد موقع لها في منظومة قيمه التي يحتكم إليها، وبذلك فطريقة العرب في التفكير " لم تكن تصعد من الشواهد الجزئية، والأحداث الجارية إلى المبدأ العام، الذي يستقطبها، بل كانت تهبط من مبدأ بفرض نفسه عليهم فرضًا، ليستخرجوا منه قواعد للفكر والسلوك "[١٧]، وغالبا ما يكون هذا المبدأ الملزم؛ إما إلهاما بفكرة، او أن يكون حدسًا، او تقليدًا أو عرفًا؛ لذا كان العقل العربي ينزع إلى إدراك الحقيقة في صورتها المجردة العامة، فهو يدركها " بلمعة مباشرة لا استخلاصًا من أمثلة فردية "[١٨]، عقل تشده الجزئيات، ولا يولي عنايته " بمدركات كلية أو نظرات شاملة "[١٩].

لانغالي إن أكدنا أثر الصحراء الفاعل في العقلية الجاهلية أليس هي مصدر حياة القبيلة ومحورها الأساسي؟ أليس هي السبب في نشوء التحالف بين القبائل، وهي أيضا

السبب في اختلاف القبائل، ونشوب حروبهم؟ أليس هي السبب في استقرار القبيلة، مثلما كانت هي السبب في ترحال القبيلة ؟ إن طبيعة الصحراء هي من تفسر لنا الكثير من الظواهر والأحداث، بل والمفارقات التي اتصف بها العربي الجاهلي في أخلاقياته حتى سلك النقيضين؛ فهو شديد العصبية لقبيلته، وتراه إلى ذلك موغل في نزعته الفردية.. وهو متشبث بأخذ الثأر، وتراه إلى ذلك يحفظ الجوار، بل ويجير أيضا عدوه إن لاذ به، وهو جاف غليظ القلب ربما وأد بناته، وتراه إلى ذلك رقيق الفؤاد، جياش العاطفة ربما اقترب من الفناء لصدق عشقه وشدة لوعته.. وهو حليم ذو أناة وروية، وتراه إلى ذلك ضيق الصدر، منفصل الطبع، يهيج لاتفه سبب.

إن طبيعة المكان القاسية وتداعياتها، قد حددت للعرب طريقة تفكيرهم، ما يلزمهم من المعارف البسيطة، التي لم تكن ترفًا عقليا، بل كانت ضرورة حياتية؛ اكتسبوها إما عن خبرة وطول تجربة أو عن الإدراك بفرط العناية.

أ.الدين:

على الرغم من أن الجزيرة العربية شهدت تجمعات لليهود والنصارى بفعل هجرتهم إليها هربًا من إضطهاد الروم لهم؛ إلا أن تأثير تلك الديانات كان بسيطًا لايتعدى مناطق محددة، وقبائل معينة، حيث ظهرت " مستعمرات يهودية في تيماء وفدك، وفي خيبر، وفي وادي القرى وفي يثرب "[٢٠]، أما النصرانية التي " يظن إن انتشارها في اليمن بدأ منذ القرن الرابع الميلادي "[٢١]؛ فقد اتخذت من منطقة (نجران) مقرًا رئيسًا لها، إضافة إلى انتشارها في (طيء) و (دومة الجندل). غير إن اليهودية ساهمت بما أحاطها من أحاديث وقصص مفسري التوراة في تغلغل الكثير من الأساطير والخرافات بين عرب الجاهلية.

إن تأثير تلك الديانات ظل بسيطًا وسطحيًا، وفي نطاق ضيق حتى قبيل الإسلام، فقلة قليلة من عرب الجاهلية اعتنقوا ديانة من الديانتين، وقد ذكر (ابن قتيبة) بعضًا منهم**، كما كان قليل من عرب الجاهلية على شك من أمر الأصنام، وإن لم يعتقد بيهودية أو نصرانية، وسواء منهم من آمن بإحدى الديانتين، أو كان على وثنية، فإن فعل الدين في

نفوسهم كان ضعيف الأثر، ولعل هذا ما يفسر لنا خلو الشعر الجاهلي من أثر العاطفة الدينية. أما الغالبية العظمى من عرب الجاهلية؛ فقد كانوا على الوثنية، ويعبدون الأحجار(كاللات) آلهة (الطائف) أو (العزى) الألهة الأم لقبيلة (قريش). كما آمن العرب بقوى إلهية كثيرة من مظاهر الطبيعة، كعبادة الكواكب والنجوم، فالعرب من أقدم عبدت القمر، وقد تعددت أسماؤه؛ فهو عند العرب البائدة (سين)، كذلك " تسمت بإلة القمر قبائل كهلان باليمن، إذ أن من ألقاب إله القمر في نصوص العرب البائدة في اليمن اسم كهل"[٢٢]، كما عاش عرب الجاهلية تحت تأثير الأسطورة والخرافات؛ وما انتشار الديانات الطوطمية **Totemism**؛ إلا دليل على تأثير الأسطورة فيهم، إذ غالبا ما كانت العرب تجعل من الحيوان، أو النبات طوطمًا تلتف إليه محتمية به، من مثل: الكلب، أو ثور، وثعلبة، وما تسميه بعض القبائل العربية بأسماء حيوان كقبيلة (بني ضب)و (بني كلاب)، و(بني ثعلبة)؛ إلا تأكيد على أثر تلك الديانات الطوطمية فيهم.

ودون شك؛ إن العقل الجاهلي وطبيعة تفكيره، كان وراء هذا الاعتقاد بوجود قوى خفية جبارة تكمن في بعض النباتات والجمادات، ليجعلوا منها آلهة يعظمونها ويقدسونها، ويقدمون القرابين لها. فغالبا ما مزج الجاهلي الأسطورة بالعبادة، ليلجأ إليها كلما أحس بضعفه أو عجزه عن تفسير ظاهرة أو حدث ما، وهذا ما يتجلى -مثلا- في ظاهرة تقديس وعبادة العرب لبعض الأشجار؛ فقريش قدست في جاهليتها شجرة عظيمة خضراء يقال لها (ذات أنواط)، كذلك عبد العرب (العزى) وهي كما يقال نخلات مجتمعة، وفي هذا دلالة على أن " الفكر الأسطوري كان أساسًا للفكر الديني، أو الفلسفي الغيبي عند العرب "[٢٣].

ب.الخرافة:

الاعتقاد بالخرافة سمة من سمات الشعوب الفطرية، التي يعجز عقلها عن تعليل حقيقة تاريخية ما؛ فيجنح بها إلى عالم غيبي مليء الخوارق، وقد كان لعرب الجاهلية خرافاتها التي تعتقد بها، وتجد فيها سبيلا لتعليل ما لايستطيع عقلها تعليله، كاعتقادهم بأن

من بني مدينة (تدمر)هم الجن، او مانسجوه من خرافات كثيرة عن الحوادث التي مرت بها القبائل البائدة كعادة طسْم، أو إيمانهم بوجود الغول والعنقاء وغير ذلك.

لقد غرق العقل الجاهلي في محيط الأسطورة، واستحوذت عليه الخرافات، فإذا بهم ينسبون " لسابقيهم من القبائل العربية البائدة انحدارهم من أمهات جنيات مثل قبائل جرهم "[٢٤]. بل إن بعض القبائل انتسبت إلى الجن مثل (بنو مالك) و (بنو شيبان) و(بنو يربوع) وأخرى " عبدت الجن مثل رهط طلحة الطالحات من خزاعة "[٢٥]، غير إن هذه الخرافات لم تكن كلها صادرة عن العرب، وإنما أكثرها " انتشت بين عرب الجاهلية من جيرانهم ومن اليهود الذين نزلوا بينهم "[٢٦].

إن قصر العقل الجاهلي، وعجزه عن تفسير الظواهر وتحليل وربط الأشياء ربطًا منطقيًا، دفع بالعرب إلى اللجوء للكهانة والعرافة، والاعتقاد بالتفسيرات الميتافيزيقية. وهذا الأمر لاتختص به عرب الجاهلية فقط، بل أنه حال كل الشعوب الفطرية، التي لاتستطيع تعليل الأشياء تعليلا صحيحًا؛ نتيجة الطور الحضاري الذي تعيشه.

ج.الفلك:

عرف العرب في جاهليتهم بعض مظاهر الفلك، لكن معرفتهم بها لاتصل إلى مرتبة العلم القائم على أصول وقواعد، لكونها معرفة نبعت من ضرورة حياتية، فرضتها الطبيعة الصحراوية للمكان، إضافة إلى ذكاء العرب، ومطالعتهم المتكررة في صفحة السماء المكشوفة لأعينهم الثاقبة الراصدة للكواكب والنجوم، لحاجتهم للاهتداء بها في ترحالهم المتكرر في بادية مترامية الأطراف، قليلة المعالم؛ فكانت النجوم هي دليلهم الأوحد الذي يجب عليهم معرفته ومعرفة مظاهرة، وكذلك عرف العرب " كثيرًا من النجوم الخفية حتى جاء في أمثالهم (أريها السُها فتريني القمر) إن السهاء نجم خفي جدًا يمتحن الناس به أبصارهم "[٢٧]، ولقد عرف الجاهليون معظم أسماء الكواكب والنجوم، وجعلوا من أسمائها أسماء لأولادهم مثل: بدر، قمر، عطارد، سهيل، والثريا.

د.الطب:

على الرغم من وجود أفراد مارسوا الطب بعد دراسة تلقونها في بلاد فارس والروم، مثل (الحارث بن كلدة الثقفي)، إلا أن الغالب والثابت أن الجاهليين مارسوا العلاج، إما عن معرفة متوارثة بالداء والدواء، أو عن تجربة، لا عن علم يقوم على قاعدة أو نظرية؛ فعرفوا الكي بالنار، والتداوي ببعض النبات. ونراهم-أيضا- يستخدمون العزائم والرّقي، لاعتقادهم بأنها تطرد الروح الشريرة التي تحل في المريض، وعلى هذا كان طبهم " قاصرًا ولم يكن مبنيًا على قواعد عقلية "[٢٨]، فالتجربة الناقصة كانت هي طريقهم إلى المعرفة، وبخاصة البدو منهم، إذ أنهم ليسوا أهل علم أو منهج عقلي، بسبب ضعف تعليلهم العقلي، وبعدهم عن التعمق والدرس، والبحث في طبيعة الأشياء، واقتصارهم على النظرة العارضة إليها، وانشغالهم وانشرادهم إلى الجزئيات دون المدركات الكلية.

هـ.الأدب:

هو بحق مرآة تلك البيئة، ولكنه مرآة أضفت من جمالها جمالا على الصورة المنعكسة فيها.. والأدب الجاهلي وإن طبعته بيئته بأقوى طابع؛ فهو أرقى منها، وفي ذلك دليل على أن العرب كانوا في لحظة من الاستعداد الروحي، تتعارض على ما يظهر للناظر من تخلف وتأخر، ومن سوء وضعهم.

وإذا قلنا: الأدب الجاهلي، فإنما نريد الشعر الذي كان سجل تاريخ العرب، أما النثر فقد كان ضعيف الشأن، يسير المقدار، يكاد ينحصر في نتق من الأمثال والخطب وهذه الظاهرة الأدبية لاتقتصر على العرب وحدهم، بل هي تشمل كل الشعوب في طورها الفطري، حيث نجد الشعر هو الأسبق والأعلى فيها، نظرًا لارتباطه الوثيق بالعاطفة، بعكس النثر الذي مصدره العقل.

في الجاهلية احتل الشعر مكانة عظيمة حتى عدّ سجل العرب وديوان فخرهم، لذلك كان للشاعر أهمية كبرى في حياة قبيلته، تعتز، وتفاخر به، إذا أجاد القول، وترى في لسانه سلاحًا على سلاحها في قهر وهزيمة أعدائها.

وحديثنا عن الشعر لن يتناول بناءه، أو جماله الفني، وإنما سيتناوله من حيث معانيه ودلالاتها العقلية.

على الرغم من الكمال اللغوي الذي اتصف به الشعر الجاهلي، ومن عفوية أثرته جمالا وزادته عذوبة، إلا أن للشعر الجاهلي عيوب اعترت معانية، نتيجة العقلية الصادرة عنها، لعل أولها قلة عمقها؛ فالشاعر الجاهلي يدرك الأشياء إدراكًا عاطفيًا انفعاليًا؛ كأن يرى منظرًا استهواه؛ فيجيش صدره بالشعر، دون استغراق فكر أو إطالة تأمل، إذ يكفيه من الشيء جزء يثير عجبه؛ فتأتي معانيه واضحة بسيطة، لاتكلف فيها ولا اغراق وهو بهذا النهج إنما ينشد صدق النقل وأمانة التصوير " ومن أجل ذلك كان شعره وثيقة دقيقة لمن يريد أن يعرف حياته وبيئته "[٢٩]، وهنا نجد أثر الواقع، وتدخله الفاعل في إدراك العقل الجاهلي، حتى أصبح الشعراء الجاهليون أسرى لواقعهم " فالواقع هو المصدر المباشر الذي يمدهم بكل مواد هذه الصور ويهبهم ألوانه"[٣٠]، كما أن هذا الأمر قد أدى إلى حسية معاني الشعر الجاهلي، وأكدتها عقلية الشاعر التي تولى جلّ عنايتها " بالمظاهر الخارجية والأثر الخارجي لها منها بالأثر الداخلي أو المسارب الداخلية "[٣١]، ولعل في إسهاب الشعراء الجاهليين في وصف مفاتن المرأة دليل على تعاظم الجانب الحسي لديهم، كقول الأعشى:

غراءُ فرعاءُ مصقولٌ عوارضُها تمشي الهوينا كما يمشي الوَجي الوحلُ

كأنّ مشْيتها منْ بيت جارتها مرّ السحاب، لاريثٌ ولا عَجَلُ

هذه المعاني الحسيّة المحضة، أسرت الشاعر الجاهلي، وحاولت دون انتقاله بها إلى معنى عام، فالشاعر " لايبدأ من لقطة حسية إلى فكرة تكمن وراءها"[٣٢].

إن الإدراك العقلي القائم على مثيرات حسية، غلب على معاني الشعراء الجاهليين؛ فكان السبب في قصر خيالهم، فهم " لايتحدثون عن عالم يتوهمونه، ولكنهم يتحدثون عن عوالم مارسوا كل صغير وكبير فيها"[٣٣]، فالعرب في طور البداوة بنت أشعارها على " ما أحاطت به معرفتها وإدراكها عيانها ومرت به من تجارب"[٣٤] ، وكان أن نتج عن ذلك الإدراك المباشر، والنزوع الحسي، أن ضاقت معاني الشعر الجاهلي، حتى وجدنا الشعراء

يدورون حول معان بعينها، لايكادون يختلون فيها، أو يحيدون عنها، وفي هذا يقول زهير ابن ابي سلمى:

ما أرانا نقول إلا مُعارا أو مُعادًا من لفظن مكرورا

ودون شك، أن طبيعة الصحراء بمظهرها الرتيب المتكرر؛ وشحة أسباب الحياة فيها، أفضت إلى شحة في المعاني، كما نشأ عن حياة البداوة، وما تتصف به من تكرار؛ نوعًا من نمطية التفكير، وأحاديته.. إن تلك الظروف أو الأسباب، هي التي تفسر لنا ظاهرة التقاء الشعراء الجاهليين حول المعاني نفسها، والصور ذاتها، وإن حاولوا صبغها بألوان تجاربهم المختلفة، أو توليها، حتى نرى " المعنى الواحد قد توارد عليه الشعراء، فصاغوه في قوالب متعددة تستدعي الإعجاب"[٣٥]، كذلك نلحظ-أيضا- في الشعر الجاهلي؛ فقدان الإجابة بالموضوع، وضعف الترابط بين المعاني، ولعل في تعدد وتلون أغراض القصيدة الجاهلية في وقوف على الأطلال، وبكاء لرحيل الأحبة، ثم وصف الراحلة دليل على عدم ترابطها، ولقد ألتزم الشعراء الجاهليون بهذا الأسلوب المتعدد الأغراض، وساروا عليه، لايعدلون عنه قيد أنملة، ومرد هذا يعود إلى الطور العقلي الذي كان فيه العرب، وتأثير محيطهم المجرب، والشحيح، والمترامي الأطراف، وما فرضه عليهم من قلق وبحث دائم عن أسباب الحياة، ولانشغالهم بذلك عن سواه، فكان من الطبيعي أن لايستغرق الشاعر الجاهلي في المعنى الذي يلم به " بل لا يكاد يمسه حتى يتركه إلى معنى آخر"[٣٦]؛ فمثلما تنقل البدوي من مكان إلى آخر بحثًا عن متطلبات البقاء، تنقل-أيضا- الشعراء بخفة من معنى إلى آخر، حتى غدت قصائدهم أشبه بهجراتهم، تجمع في رحابها موضوعات شتى متباعدة، وألوان من العواطف المتباينة، فإذا بقصائدهم " وكأنها مجموعة من الخواطر يجمع بينها الوزن والقافية، وتلك هي كل روابطها"[٣٧].

٤-بعض إشكاليات العصر الجاهلي:

ربما يمضي وقت ليس بالقصير، قبل أن يتيسر الحديث عن العصر الجاهلي حديثًا تاريخيًا دقيقًا، يفتح مغالق تلك الفترة، ويزيل ما أحاطها من غموض، وصولا إلى كتابة تاريخ

مفصّل لأحوالها.. أما في وقتنا هذا؛ فمازالت صورة الحياة الجاهلية المتقدمة يكتنفها الغموض، وتختلط بها الأساطير والخرافات على نحو ما جعل ابن هشام صاحب السيرة النبوية- القرن الثاني الهجري- يتحرّج من قبول بعض الروايات لأشعار منسوبة إلى الأوائل والبائدين والجن، ولايختلف حال الفترة المتأخرة-التي هي موضوع بحثنا- عن سابقتها؛ إذ أن صورتها التي بين أيدينا لاتفصح عن المثير من ملامحها، لندرة الوثائق، ولقلة النقوش والمعلومات التي انتهت إلينا بطريقة الرواية في الأغلب؛ الأمر الذي جعل الحديث عنها تصورًا، ورجمًا بالظن يُحذّر من تصديقه، ويوصي بالشك به..

والمقصود بالعصر الجاهلي؛ هو الفترة المتأخرة التي سبقت الإسلام بما لايتجاوز مائة وخمسين سنة والمصدر الذي تستقي منه أحوال ذلك العصر، يتمثل في القرآن والشعر الجاهلي. وأيام العرب وأخبارهم..

ودون شك في أن هذه الفترة الزمنية القصيرة للعصر الجاهلي (١٥٠سنة) لم تساعد المهتمين بالدراسات التاريخية في اليمن عميقًا وصولا إلى جذورها التاريخية (أي الجاهلية المبكرة) التي مازال معظمها غير مكتشف؛ كذلك فإن أخبار الجاهلين لم تحظ باهتمام وعناية الرواة المسلمين، الذين أغفلوا تدوينها حتى بدء تاريخ العصر الجاهلي شديد الغموض، لايتيح التعرض لأحواله الاجتماعية، والفكرية، والسياسية، بل أن مازاد الأمر صعوبة هو أن مصادر البحث على ندرتها وقلتها، لم تسلم من العبث؛ إذ أن هذا التراث الشعري، ومارافقه من أخبار العرب، قد تناقله القصاص والرواة شفاهًا إلى أن دوّن في القرن الثاني الهجري فتسلل إليه في رحلته تلك شيء من التغيير ومن التحوير، إما لأسباب قبلية، او شعوبية أو لخلافات دينية أو مذهبية، وإما لأغراض شخصية أو لتكسب كما فعل بعض أهل البادية من عرب الجزية، حيث أشار إلى ذلك الأصمعي(القرن الثاني الهجري) وابن سلام الجمحي في كتابه (طبقات فحول الشعراء) حين تحدث عن فساد بعض الرواة، وأسهب في تلك المسألة طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي) .

أما الإشكالية الأخرى فهي أن معظم ما كتب عن تلك الفترة أنحصر في آدابها وبخاصة الشعر، وبالمقابل هُمشت أو أغفلت الجوانب العقلية والاجتماعية والدينية من الحياة الجاهلية، حتى أصبح العصر الجاهلي لايمثل في الوعي العربي سوى معيار [illegible] الشعر وجماله، وكان نتيجة لذلك أن غابت الدراسات والأبحاث المهتمة بالبحث عن الحياة العقلية ومظاهرها في العصر الجاهلي، او اقتصر الأمر على ذكرها باقتضاب وسطحية.

إن حضور تلك الإشكاليات شكّل مسربًا لظهور وانتشار الكثير من الفروض والأحكام التي لم تقم على أساس علمي، وانما على فروض بُنيت في أغلبها على كثير من التصورات، وقليل من العلم، صاغها علماء القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، إضافة إلى أن هذا القليل من العلم كان في بداياته الأولى، الأمر الذي يوجب إعادة النظر في تلك الأحكام ونقدها وتقويمها.

الإشكالية الأخرى: ومن المؤسف أن هناك كتابات تبنت-لسبب أو آخر- آراء وأحاكم عدد من المستشرقين الذين انطلقوا من منطلقات ضيقة بعيدة عن الموضوعية، وعن طرائق البحث العلمي، إما لتعصب عرقي، أو ديني، وإما لأهداف تخدم السياسات الاستعمارية آنذاك، وكان أبرز هؤلاء أرنست رينان RNEAN الذي ذهب إلى أن ".. العقل العربي لايصلح للدراسة والبحث؛ لأن العقلية السامية مجدبة كالصحراء التي نبتت فيها.."، بل إن الأكثر إيلامًا أن هذا الحكم الجائر، والقائم أساسًا على نظرية الأجناس، المنحازة إلى إطار ضيق عرقي يمجد الجنس الآري، قد وجد له طريقًا ليستقر في أذهان بعض الدراسيين العرب، فبنوا عليه أحكاما قاطعة تداولتها بعض الكتب المدرسية..

بالإضافة إلى إن الثلبّت والتثبّت، والتدقيق والتحقيق تعد من أساسيات البحث العلمي، وأمر تفرضه الأمانة العلمية، لذلك فإن إشكالية المصادر البحثية، لايجب أن تُستغل وتصبح ثغرة لتسريب ونشر الفروض والأحكام،دون توجس والاحتراس، مالم تثبتها أسانيد وأدلة عقلية، أو تاريخية.

الإشكالية الأخرى وهي على الرغم من قلة التفاصيل الدقيقة عن صورة الحياة الجاهلية، إلا أن هذا القدر اليسير من المعلومات التي انتهت إلينا يجعلنا في شك من تلك الصورة التي تظهر الحياة العقلية الجاهلية بدائية، على نحو ما صوره رواة الأخبار، وما تصوره بعض الدارسين.. فلو قبلنا بتخلف الحياة العقلية في العصر الجاهلي وبدائيتها فماذا عن تلك الإشارات التي تناثرت في النقوش، والكتابات القديمة، والقصائد، والقرآن، والتي إن لملمناها لشكّلت مادة يُعتد بها، في الكشف عن الصورة الحقيقة للعصر الجاهلي في جانبه العقلي، ولدفعتنا إلى رفض تلك المقولة التي وصمت الحياة الجاهلية بالتخلف العقلي، من عدة وجوه:

- لو أن العقلية الجاهلية بدائية؛ لما كان لها أن تصمد أمام تحديات الطبيعة القاسية التي غلب عليها الاجداب والاقفار، ولما كان لتلك العقلية، أن تظهر استجابتها الفعالة لتحدي الحياة، فتكدح كدحًا في سبيل العيش في أرض مجدبة، لاتسعف الإنسان بالشيء اليسير من حاجاته.. ألا تشير (استجابة التحدي)، التي أبداها الإنسان الجاهلي، إلى عقل متصرف، أحسن التفكير الواقعي؛ فأنشأ بذلك لنفسه إطارًا حضاريًا، يفي بحاجاته، ويساعده على البقاء ومقاومة أسباب الفناء في صحراء الجزيرة العربية وبواديها.
- وماذا عن احتراف أهل مكة، ومدن الجزيرة العربية للتجارة التي تتطلب تفكير واقعي حسابي، أليس في ذلك دليل على عقلانية تفكيرهم، ومهاراتهم في توظيف العقل في هذا الجانب الاقتصادي الذي برعوا فيه حتى بلغت تجارتهم أقصى الشرق، وسواحل البحر المتوسط.
- إذا كنا ندرك العلاقة الجدلية بين الواقع والفن، وأن الفن استجابة لحاجات جمالية في واقع تاريخي اجتماعي معين، وأنه جزء من منظومة ثقافية عامة، تعبّر عن مرحلة من مراحل تطور المجتمع.. فمن المؤكد إذا؛ أن الشعر الجاهلي لم يكن طفرة، وإنما مرّ بضروب من التقويم، والتهذيب حتى بلغ من الإتقان المبلغ الرائع، الذي

نجده عليه أواخر العصر الجاهلي.. ليـ ل هذا الشعر بما فيه من تعقيد فني على مرحلة من التطور، وعلى أنه لايصدر، إلا ٠ ن بيئة عرفت قدرًا من الثقافة ولايجسد إلا عقلية راقية؛ فخلّد لذلك وأصبح يمث ل لعلماء اللغة المسلمين مصدرًا للقواعد النحوية والصرفية، وعدّ للشعر والبلاغة معي رًا مثاليًا يعتد به كثير من الشعراء والنقاد المسلمين.. وفي هذا برهان على أن المج م ع الجاهلي في درجة من الاستعداد العقلي والروحي تتنافى مع مايبدو للمعاين السطحي من تخلفهم، وسوء حالهم.

الإشكالية الأخرى إننا إذا ت\احتكمنا إلى القانون العام للغة، الذي ينص على أن أية لغة في أي زمان أو مكان، إنما هي وليدة المجتمع، وترتبط به أشد ارتباط، تصور سلوكه واتجاهاته، وتلبي حاجاته، وتعبّر عن أفكاره؛ فاللغة العربية الفصحى (لهجة قريش) التي كانت مستكملة النشأة في القرن السادس الميلادي، لاتشذ عن ذلك؛ فهي كسائر اللغات، تجسيدٌ لكل معارف الإنسان، وخبراته، وثقافته، وبالتالي فإن هذه اللهجة القريشية التي كانت هي الأساس لإقامة البناء اللغوي المثالي النموذجي (اللغة الفصحى) الذي أهلها للتوظيف القرآني، لايمكن أن تكون وليدة مجتمع متحضر ذي مكانة عالية، إذا كان لقريش نفوذ ديني واقتصادي وكانوا أهل خبرة وحنكة وعلى اتصال بثقافات وحضارات مختلفة، مما يشير ذلك إلى عقلية متطورة.

- ثم أننا إذا سلمنا بصحة تلك الفروض التي صورت المجتمع الجاهلي وثنيًا، مقفر العقل، وجدب التفكير، لايثور في أعماقه أسئلة عن المغزى من حياة الإنسان.. فماذا-إذا- عن تلك الروايات والأخبار التي حدثتنا عن مظاهر الشك، واستخفاف الجاهلين بأصنامهم، على نحو ما قاله رجل من بني مالك في صنم يدعى سعد:

أتينا إلى سعدٍ ليجمع شملنا فشتتنا سعدٌ فلا نحن من سعدِ

وهل سعدٌ إلا صخرة بتنوفة من الأرض لا يدعي لغيّ ولا رشدِ

ففي تلك الفترة القريبة من الإسلام، فقدت الوثنية قوتها، وأصابها الوهن، وبهت تأثيرها، ولم يبق منها سوى طقوس قديمة، وفي المقابل يحدثنا رواة أخبار تلك الفترة عن

ظهور جماعة المتحنفين في أواخر العصر الجاهلي، واجتماعهم على عقيدة واحدة هي الكفر بعبادة الأصنام، وأنهم كانوا يطوفون بحثًا عن دين إبراهيم، وعن اطلاعهم على الكتب السماوية، وتأمّلهم في الكون تقربًا إلى الله ليقر ذلك كله حقيقة أن المجتمع الجاهلي كان في حالة استعداد روحي وعقلي ساعدته فيما بعد على التقبل السريع والمدهش للدين الجديد (الإسلام) وتمثل قيمة السامية، وللقيام بدور عظيم وبتحمل مسؤولية نشر رسالة السماء إلى الناس كافة.. إن هذا الدور الخطير والعظيم المتمثل في مسؤولية المجتمع (الذي كان جاهليًا) في ابلاغ ونشر الدين الجديد، دليل على أنه مجتمع كان في أواخر جاهليته يمرّ بمرحلة من التطور العقلي، أهلته لهذا الدور العظيم، بحيث يمكن اعتبار هذه الفترة هي البداية الأولى لنشأة الفكر العربي، مرورًا بظهور الإسلام وصولا إلى عصر النهضة العربية الحديثة أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر.

الإشكالية الأخرى بل مالنا نذهب بعيدًا، وقد صوّر القرآن الكريم قوة الجانب العقلي لتلك الحياة الجاهلية، سواء في وصفه شدة جدال الجاهلين، ومهارتهم في الحوار مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين؛ أو في مخاطبته-أي القرآن- لهم بأساليب معرفية ألفوها، وبطرائق تفكير اعتادوها من مثل: النظر، البصر، التفكير،العقل..الخ، مما يشير ذلك إلى حضور الجانب العقلي، بخلاف ما صورتها تلك الفروض.

- وإذا كنا نسلّم بحقيقة الأحداث التي شهدتها جزيرة العرب منذ القرن السادس الميلادي حتى مطلع القرن السابع الميلادي، حيث وقعت اليمن تحت احتلال حبشي (٥٢٣م) وآخر فارسي (٥٧٥م)، وخضع شرقي الجزيرة للفرس في معظم شؤون حياته، وكانت محاولة (أبرهة) احتلال الحجاز وهدم الكعبة (٥٧٠م) (عام الفيل).. وفي ذلك التاريخ تسربت تعاليم يهودية ومسيحية إلى شبه جزيرة العرب، وحدثت فيه هجرات من خارج الجزيرة إلى داخلها كهجرة اليهود إلى الحجاز (يثرب)، وأخرى داخلية كهجرة الأوس والخزرج من جنوبها إلى شمالها، وازدهار اقتصاد مكة التجاري وبروز قريش كقوة اقتصادية إلى جانب دورها الديني، وكثرت

رحلات أهلها إلى البلاد المجاورة.. وما شهدته تلك الفترة من حروب بين القبائل العربية.. هذه الأحداث الجاهلية التي تدخل في نطاق التاريخ المألوف؛ كان لابد لها أن تحرك العقل وتغذي الشعور بأن خلقت شيئًا من الوعي الاجتماعي لدي القبائل المتناحرة صوب توحيد قواهم على نحو ما عرفناه في معركة ذي قار ضد الفرس (٦١٠م)، وإضافة إلى أن تلك الأحداث أوجدت نوعًا من الوعي للتغلب على الجهل الذي هو ضد الحلم، وكان علاقة ذلك الوعي، حلف الفضول (٥٩٠م)، الذي تحالفت فيه قريش على " الا يتركون بقية حق لمظلوم عند ظالمه" والصلح بين عبس وذبيان في مطلع القرن السابع الميلادي بعد حرب (داحس والغبراء).

وعلى الرغم من أن تاريخ العصر الجاهلي ما يزال يحتاج جهدًا متصلا حتى تتكشف لنا جوانبه؛ إلا أن ذلك لايعد سببًا للتسليم بصحة الرأي القائل ببدائية العقل الجاهلي الذي راج في كتابات عدد من المستشرقين، وأصبح منطلقا في تفسير أحوال العصر الجاهلي.

وأخيرًا فإن بحثنا هذا ليس لتأريخ العصر الجاهلي، وإنما دعوة للنظر إلى حقيقة أغفلها كثير من المؤرخين، هي أن ذلك العصر قد عرف قدرًا من الحضارة، ومن الثقافة ومن التطور العقلي، بحيث يمكن اعتباره من منظور الفكر العربي المعاصر، البداية الأولى لتشكل الفكر العربي.

الخلاصة والاستنتاجات:

-لقد كتب بعض المؤرخين حول ما توصل إليه العصر الجاهلي في جوانب مختلفة كان في غالبيتها الفنون والآداب والشعر..الخ؛ كنتائج دون أسباب، أي وفقا للمدلول غير الدال، المشروط دون الشرط، الأمر الذي عرض العصر الجاهلي من منظور هذه الدراسات إلى عديد من الثغرات والنواقص والأخطاء وهو ما يفرض على البحث تجاوز بعض هذه الاخطاءات.

-إن هناك من مفارقات عجيبة وخاصة في قضايا تطور الفكر العربي بحيث وللآسف الشديد ارتبطت عملية هذا التطور بالتراجيديا والدراما والمآسي، من خلال ملاحظتنا أن العصر الجاهلي أحدث تطورًا فريدًا على صعيد الأعجاز القرآني اللغوي، كمصدر فخر واعتزاز للفكر بوصف اللغة هي الوعاء الذي يُقاس بموجبها تطور أي فكر إنساني ومن الغرابة-كما ذكر سلفا- بأن هذا الإعجاز اللغوي تزامن من ما الحق بهذا العصر من وأد البنات والمجون والخلاعة والتخلف في الوجه الآخر، وهو ما يقودنا إلى إن هذه المعادلة المتناقضة ظلت هي المعيار الحقيقي للفكر العربي، بدليل آخر هو ماجرى من تطور للفكر في العصور العباسية ولاسيما في عصريهما الأول والثاني من نهضة فكرية على صعيد التأليف والتدوين والترجمة، والفرق السياسية المختلفة وعلم الكلام..الخ، علما إن الوجه الآخر في نفس العصر شهد انحطاطا خلقيا وشرذمة وتمرق، والسؤال الذي يجعل الإشكالية قائمة، ياترى طالما عرف عن الفكر العربي تطوره باقترانه بالدراما كما لاحظنا، كيف يفسر غياب هذا التطور حاليا، سيما وأننا نشهد التراجيديا اليوم وهي تعيش أحلى لحظات حياتها بل وفي قمة تطورها ولم يحدث ذلك التطور على الفكر العربي.

-ارتبطت العديد من المقالات والموضوعات والأبحاث وفي معظمها وخاصة عن العصر الجاهلي بالتوسع الأفقي دون أن يلازم ذلك التوسع الرأسي، وهو ما عمل على عدم اكتمال صورة هذا العصر إلا في طريق الاسوداد والعفوية.

-إن الدليل على صورة العصر الجاهلي ليست كما تم تصورها يقودنا إلى بعض الأسئلة وهي:

أليس الرسول(ص) والخلفاء الراشدين هم من نتاج هذا العصر؟.

أليس الإسلام كدين ورسالة سماوية هي دعوة جاءت في خضم هذا العصر؟.

-دور المرأة الجاهلية وانشغالها بالتجارة ألا يعكس رسالة من النمو والتطور، كيف يفسر انهماك خديجة بنت خويلد زوجة رسول الله (ص) بالتجارة؟

-كيف يُعلل انشغال هند بنت عبدالمطلب وكذا سلمى بنت عمرو بالتجارة إذا كان هذا العصر عصرًا متخلفًا؟

-لماذ ارتبط العصر الجاهلي زمنيًا بمائة وخمسين عامًا قبل الإسلام؟ لماذا الا يكون قبل ذلك أو بعد ؟

لماذا اقترن هذا العصر مكانيًا بالجزيرة العربية دون غيرها من بلاد الشام مثلا..الخ؟

كيف نفسر ذكر القرآن على أهمية العقل إلى درجة بلغ عدد مرات العقل، من تبصر، وتفكر، وأولو الالباب والابصار ما يقارب " ثلاثمائة وتسعة وخمسون مرة "[٣٧].

-لماذا لايكون عصرنا اليوم هو جاهلية القرن الواحد والعشرين؟

- من ذلك كله نستطيع ألاّ أن نفهم سر وغضب وإحباط ويأس وتفجر المثقفين العرب من سوء استخدام شرعية هذا العصر أي (الجاهلي) في عالمنا العربي، ولايجد المرء ازاء تلك الصورة المعتمة للعصر الجاهلي التي صور مثقفو الفكر آياها في التصريح والإعلان من على منبر صفحات هذا البحث الآخذ في التواضع وبصوت عال إلا أن يقول بأن السلطات العربية الراهنة والحاكمة في معظمها إن لم نقل جميعها كافة تعاني أزمات حادة في بناها السياسية

من هوية وشرعية ومشاركة، وهو ما أدى بالضرورة إلى نتيجة مفادها القصور المعرفي علاوة على البرجماتية التي ظل بعض مثقفي السلطة يعملوا على عكسها عن تسمية الأسماء بتسمياتها، ولقد كانت الكتابات عن العصر الجاهلي هو الآخر قد أخذ نصيبا وافرًا من التعمية والتزييف والتكذيب.

-أن مخاطر ذلك أكبر بكثير مما يتصور بعضهم-فلم تعد الأنظمة هي وحدها المهددة، بل أن المجتمع كله بات يعاني هو الآخر تهديدات جدية تمس صمم قدرته على الاستمرار من دون انفجارات بالغة.

-إن حركة التاريخ تستمر والتناقضات الفكرية والاجتماعية تنمو ولايمكن لجمها أو لج جماحها أو العمل على وقفها وفرملتها أو قمعها بالقوة؛ فإذا لم توطد هذه التناقضات بالصبر على الرأي والتحمل على الرأي الآخر، وإن لم تفتح أمام هذه التناقضات القنوات للتعبير السياسي والحوار الحضاري البناء؛ فإنها بالتأكيد ستنفجر وبشكل متشدد ومتطرف، وكلمة أخرى أننا نملك مجتمعات قد تجاوزت العشائرية نسبيا ولكنها لم تصل مرحلة الدولة الحديثة بعد؛ فالأزمة ليست كامنة في الثقافة العربية المعاصرة وحاملها الاجتماعي بالأساس فقط، بقدر ما نجدها في المجتمع والسلطة وعلى امتداد الوطن العربي بأسره، ومن هنا كان استغراق الفكر العربي المعاصر في بحث الشروط الملازمة لممارستها في الحياة اليومية، وفي المؤسسات منذ مطلع القرن السابع للميلاد، ولصياغة القواعد للسلطة العربية الراهنة وحدودها والحريات المدنية والاجتماعية للناس.

-وفي الواقع ليس للمرأة وليس للرجل تاريخان منفصلان؛ فهما صانعا تاريخ مشترك حتى في علاقات القهر المفترضة في مجتمع معين، وهما شرطان متكاملان لكل البناء الاجتماعي البشري، وطبيعة علاقاتها المركبة؛ فهي ليست إحيائية ولا روحية أو نفسانية حصرًا، بل هي واقعة اجتماعية لها مقوماتها الاقتصادية والثقافية والسياسية، وإن أي حصر أو خفض لهذه

العلاقات إلى جانب واحد يعني خفض التاريخ الإنساني ذاته إلى مكون من كوناته، وعليه فإن المرأة العربية لاينفصل عن تاريخها الاجتماعي-التاريخي المشترك بينهما وبين شريكها الدائم، والشكل الانثوي المطروح وما اعتراه من عقبات وحواجز؛ فهذه الشبكة المحتوية بيولوجيا ليست كذلك ثقافيا واجتماعيا، بل هي قابلة للتغير والتطور، وإن بقاء المرأة في حالة العلاقة الطبيعية دون السماح لها بالارتقاء مع شريكها الدائم إلى حالة العلاقة الثقافية الاجتماعية هو أساس توليد المسألة النسائية والمرأة العربية كانت تتقبل هذه العلاقة التناقضية بين الحاجة البيولوجية والحاجة الاقتصادية، ولطالما أصبحت التجارة في العصر الجاهلي أكثر أهمية من الزراعة والمهن البدائية الأخرى كالحياكة مثلا، فإن المنشغلين بالحقل التجاري هم من صفوة المجتمع الجاهلي، وانطلاقا من ذلك فإن اشتراك المرأة في التجارة يجعل من هذا العصر ذي علاقة بارزة في مسار التطور الإنساني، ومن هنا نفهم انشغال خديجة بنت خويلد زوجة الرسول (ص) وهند بنت عبدالمطلب وسلمى بنت عمرو كدليل على حيوية هذا العصر واتسامه بالعقلانية في أطواره الأولى.

الخـــاتمة:

أن الحـديث عـن العـصر الجـاهلي مـن زاويـة ارتباطـه بـالفكر العربـي المعاصـر وذلـك بوصـفه القاعـدة التمهيديـة، يُعـد مـن قبـل الباحـث اقتحـام موضـوعًا مهمـا ومعقـدًا ومحفوفـًا بالمخـاطر. بـالنظر إلـى قلـة ونـدرة الكتابـات فـي هـذا المـضمار. هـذا المجـال الخـصب أي مجـال الفكـر العربـي المعاصـر ولاسـيما فـي حياتنـا العربيـة، ولكنـه موضـوع غايـة فـي التعقيـد وذلـك لكثـرة المـدارس الفكريـة وتناقـضاتها وتعـدد مرجعياتهـا ومـصادرها، بـل وتـضادها فـي مراحـل مختلفـة، لا بل أنه تناول لقضايا ذات إشكاليات فلسفية ومنهجية وحتى تاريخية.

إن الموضـوعات والمحـاور التـي تناولهـا البحـث هـي موضـوعات الـساعة، وهـي بالتأكيـد موضـوعات خلافيـة حـادة بـين الأسـاتذة والمفكـرين- خاصـة- إذا مـا نظرنـا إلـى واقعنـا الثقـافي الحـالي بتجلياتـه الإعلاميـة الـصاخبة وهـي كـذلك محـاور لاتخلـو مـن إشـكالية واضـحة فـي مناهجنـا الفكريـة اليـوم، وفـي مفـردات مؤسـساتنا التربويـة والأكاديميـة والمراكـز، والمعاهـد العلميـة المنتـشرة فـي أرجـاء عالمنـا العربـي، وهـي فرصـة أجـدها فـي هـذا البحـث للـدعوة فـي مناقـشتها لكـل المهتمـين بقـضايا الفكـر العربـي بغـرض إشـباعها واغناءهـا بمزيـد مـن الـرؤى والملاحظات العقلانية ذات الطابع النقدي الرصين.

الهـــوامش:

١-شـوقي ضـيف: تـاريخ الأدب العربـي (العـصر الجـاهلي)، دار المعـارف، القـاهرة، الطبعـة (٦) ١٩٧٤م، ص٣٨.

٢-عمر فرج: تاريخ الجاهلية، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة (٢)، ١٩٨٤م، ص٥٣.

٣-أحمد أمين: فجر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٦م، ص١١.

٤-شوقي عبدالحكيم: موسوعة الفلكلور والأساطير العربية، دار العودة، بيروت ١٩٨٢م، ص٢٠٥.

٥- أحمد أمين: فجر الإسلام، مرجع سابق ذكره، ص٢٩.

٦-طـه حـسين: مـن تـاريخ الأدب العربـي (العـصر الجـاهلي والعـصر الإسـلامي)، الملجـد (١)، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة (٣)، ١٩٧٨م، ص٩١.

٧- أحمد أمين: فجر الإسلام، مرجع سبق ذكره،ص٤٠.

٨- أحمد أمين: فجر الإسلام، مرجع سبق ذكره،ص٦٢.

٩- عمر فرج: تاريخ الجاهلية، مرجع سبق ذكره، ص١٣٨-١٤٥.

* شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، مرجع سبق ذكره، ص٨١.

١٠- عالم المعرفة، الكويت، العدد(٢٣٧)، سبتمبر ١٩٩٨م، ص١٨٢.

١١- عمر فرج: تاريخ الجاهلية، مرجع سبق ذكره، ص٥٦.

١٢- حسين مؤنس: الحضارة،مرجع سبق ذكره، ص١٨٤.

١٣- فيليب حتي: العرب تاريخ موجز، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة (٥)، ١٩٨٠م، ص١٦.

١٤- أحمد أمين: فجر الإسلام، مرجع سبق ذكره، صص٣٨.

١٥- حسين مؤنس: الحضارة،مرجع سبق ذكره، ص٣١.

١٦- أحمد أمين: فجر الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص٦٥.

١٧-زكـي نجيـب محمـود: قـيم مـن التـراث، الهيئـة المـصرية العامـة للكتـاب، الناشـر دار الشروق، القاهرة ١٩٩٩م، ص٨.

١٨- المرجع نفسه، ص١٥.

١٩- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي. مرجع سبق ذكره. ص٨٥.

٢٠- أحمد أمين: فجر الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص٤٠

٢١- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي. مرجع سبق ذكره. ص٩٩.

** ابن قتيبة: المعارف. تحقيق ثروت عكاشة. دار المعارف. القاهرة. الطبعة الرابعة ١٩٨٢م. ص٥٨-٦٢.

٢٢- شوقي عبدالحكيم: موسوعة الفلكلور والأساطير العربية. مرجع سبق ذكره. ص٧٠.

٢٣-خليل أحمد خليل: مضمون الأسطورة في الفكر العربي. دار الطليعة. بيروت. الطبعة (٢). ١٩٨٠م. ص٢٢.

٢٤- شوقي عبدالحكيم: موسوعة الفلكلور والأساطير العربية. مرجع سبق ذكره. ص٢٦٤.

٢٥- المرجع نفسه. ص٢٦٥.

٢٦- عمر فرج: تاريخ الجاهلية، مرجع سبق ذكره. ص١٦١

٢٧- المرجع نفسه. ص١٦٥.

٢٨- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي. مرجع سبق ذكره. ص٨٤.

٢٩- المرجع نفسه. ص٢١٩.

٣٠- شكري فيصل: تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام. دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة (٦) ١٩٨٢م. ص٦٨.

٣١- المرجع نفسه. ص١٨٥.

٣٢- زكي نجيب محمود: قيم من التراث، مرجع سبق ذكره. ص١٣.

٣٣- شكري فيصل: تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، مرجع سبق ذكره. ص٦٨.

٣٤-ابن طباطبا: عيار الشعر، شرح وتحقيق: عباس عبدالساتر. دار الكتب العلمية. بيروت ١٩٨٢م. ص١٦.

٣٥- أحمد أمين: فجر الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص٩٥.

٣٦- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي. مرجع سبق ذكره. ص٢٢٤.

٣٧-نفس المرجع.

٣٨-القرآن الكريم في مجموع السور القرآنية ١١٤ سورة.